



تراث

## صناعة "القطران" بقبيلة آي بونصار

ياسين جواد: باحث في التاريخ

### مدخل

تعتبر صناعة القطران بقبيلة آي بونصار، المتواجدة بمنطقة صنهاجة سراير، من أقدم الصناعات والحرف التي زاولتها الساكنة، حيث كانت تعتبر من أبرز المهن المتداولة في القبيلة، حتى أن هذه الأخيرة اشتهرت بهذا المنتج (القطران) على الخصوص وعرفت به. وقد تم توارث هذه الحرفة أبا عن جد، وهي معروفة بالمنطقة منذ القدم، حتى أن أوغست موليراس<sup>(1)</sup> كتب عنها في معرض حديثه عن قبيلة بني بونصار. ومما يدل أيضا على تركيز هذه الصناعة بالقبيلة، الانتشار الكبير لبقايا أماكن صناعة القطران المعروفة بالخابية أو "ثُخْبُكْت" \* محليا، وخاصة بكل من مداشر: إعطارن، ثُهَيَايزْم، أمْعَكْضَان، تَمْدِيْت، زَرْكَات... .

\* - "ثُخْبُكْت": كلمة بأمازيغية صنهاجة سراير تعني "الخابية" أو مكان صناعة القطران.



والقطران هو سائل أسود اللون، يتم استخراجه محليا من أخشاب شجرة الأرز المنتشرة بكثرة بالمنطقة. فكيف يتم إذن صناعة هذه المادة؟ وما هي فوائدها ومجال استعمالها؟ وما هي أسباب اندثارها؟

## 1. كيفية صناعة القطران

إن أهم ما يميز صناعة القطران هو كونها تحتاج للمجهود العضلي الذي يتطلبه قطع الأخشاب وجمعها أكثر من المجهود الذهني، وطريقة صناعته كالتالي:

قبل البدء في عملية استخراج القطران لا بد أولا من بناء موضع خاص بذلك، ويصطلح عليه بـ"ثُخْبَت"، وفي داخلها يتم بناء موضع صغير بواسطة الطين "أزويغ" (وهو نوع من التراب الأحمر اللاصق الممزوج بالفريش) يسمى "بالخابية"، وتكون على شكل أسطواني، بحيث لا يزيد علوها على متر وعرضها ما بين 60 و80 سنتمترا وسمكها حوالي 10 سنتمترات، ويوضع في أسفلها أنبوب صغير لاستخراج القطران، ومن وراء هذه الخابية يتم أيضا وضع دائرة مبنية بنفس الشكل، تحيط بالخابية الأولى من كل الجوانب، وتكون الخابية الأولى بداخلها ويترك بينهما فراغ يصل الى 50 سنتمترا.

ولاستخراج القطران يتم ملئ الخابية الأولى الرئيسية التي تحتوي على الأنبوب، بالخشب الجيد الأخضر واليابس (خشب شجرة الأرز)، ويتم إشعال النار فيها وتغطيتها بغطاء من طين، والأمر نفسه يتم بالنسبة للخابية المحيطة بها ويتم تغطية هذه الأخيرة بالزئبق، ويتم تثبيتها بالحجر. وهكذا فالدخان المتسرب من الأخشاب لا يجد فتحة للخروج أو التنفس، مما يجعله يتعرق فيخرج منه القطران عبر القطرات، وبعد إيقاد الخابية يتم تركها لمدة 24 ساعة حتى تخمد النار، فإذا كانت الأخشاب جيدة يتم جلب 10 لترات من القطران في يوم كامل، كما يستفيد صاحب "ثُخْبَت" من الفحم الخشبي أيضا، الذي تنتجه الخابية ويقوم ببيعه مع القطران<sup>(2)</sup>.



## 2. فوائد القطران وكيفية تسويقه

للقطران استعمالات عديدة ومهمة، فقد كان يستعمل بالأساس في علاج المواشي (الماعز، الأغنام...)، التي تعاني من الأمراض الجلدية وخاصة مرض "الحكة" الذي كان يقتل الماشية<sup>(3)</sup>، ومن المعروف بأن الرعي وتربية المواشي كانا من أهم مصادر الدخل بالنسبة لسكان قبيلة بني بونصار، وبالتالي كانت صناعة القطران تجد في القبيلة سوقا مهمة لبيع المنتج، مما أدى إلى ازدهار هذه الصناعة في الفترات الماضية، ويؤكد ذلك تواجد عدد كبير من أماكن صناعة القطران بجبال القبيلة الغنية بشجرة الأرز.

يستعمل القطران أيضا كمادة تدهن على ثدي الحيوانات حتى لا تلسعها الحشرات المضرة، وكذلك لطرد الأفاعي السامة وذلك برشه على عتبات المنازل.

إلى جانب الأسواق المحلية وخاصة "سوق الأحد" وقبله سوق حيون وسوق لغباز\*\*، كانت تجارة القطران تجد لنفسها مكانا حتى في الأسواق البعيدة عن القبيلة، وفي ذلك يذكر موليراس: "وكتجار متجولون فإن أهالي بني بونصار يبيعون في تجوالهم، الجوز واللوز والمغازل والقطران والزفت..."<sup>(4)</sup>، كما كانوا يقومون بتبادله بزييت الزيتون (لتر من القطران مقابل لترين من الزيت)، وقد كان بعض التجار يتولى شراؤه من ممتنهي الحرفة ويعادون بيعه في الأسواق البعيدة.

بعد فرض الحماية على المغرب سنة 1912، كان الفرنسيون والإسبان يشترون القطران بحكم أنه كان لإسبانيا حامية عسكرية بمنطقة زركات بقبيلة بني بونصار، وأيضا لكون

\* - هو السوق الأسبوعي لقبيلة بني بونصار منذ الاستقلال ويكون يوم الأحد.

\*\* - أقدم أسواق المنطقة يوجد بين قبيلتي بني بونصار وبني أحمد الصنهاجيتين.



المنطقة الفرنسية لم تكن بعيدة عن بني بونصار كثيرا، كما كان الاسبان يشترون الفحم أيضا للتدفئة، وحاولوا بدورهم تقليد صناعة القطان واستعمالها لأغراض أخرى ولم ينجحوا في ذلك<sup>(5)</sup>.

بعد الاستقلال وصلت تجارة القطان حتى فاس ومناطق أخرى بعيدة بالريف، وقد كان ثمن القطان يختلف بين هذه الجهات، ويرتفع هذا الثمن في فصل الشتاء لصعوبة الظروف المناخية، وبالتالي صعوبة استخراجها. فقد كان ثمن اللتر الواحد في الأسواق المحلية لا يتعدى (بسيطتين) في عهد الحماية وأكثر من (5 بسيطات) في الأماكن البعيدة، أما في الفترة الراهنة فثمنه يصل حتى 70 درهما<sup>(6)</sup>.

### 3. القطان كمصدر دخل بالنسبة لسكان القبيلة و أسباب اندثار هذه الصناعة

لقد كانت صناعة القطان تعتبر من أهم الموارد الاقتصادية لسكان قبيلة بني بونصار، بحكم تواجد عدد كبير ممن العائلات التي كانت تمارس هذه الصناعة، وعلى سبيل المثال : فقد كان أهالي دوار " تَهْيَايْزْم " خلال القرن ( 19 و 20 ) يزاولون هذه الصناعة أبا عن جد، وبعد الاستقلال كان سكان المنطقة يحصلون على تراخيص لاستغلال خشب شجرة الأرز المستعمل في هذه الصناعة، فمثلا خلال سنوات السبعينات كانت آنذاك وزارة الفلاحة والإصلاح الزراعي، عن طريق إدارة المياه والغابات والمحافظة على الأراضي، تسلم تراخيص للسكان مقابل استغلال خشب الأرز لمدة معينة مقابل 55 درهما في الشهر\*.

مع نهاية الثمانينيات والتسعينيات من القرن 20، أخذت هذه الصناعة في التدهور و الاندثار نتيجة الاستغناء عن تربية المواشي وتحول المنطقة لزراعة "الكيف" بشكل خاص\*\* رغم كونه قديم بالمنطقة<sup>(7)</sup>، إضافة للتخلي عن جل الزراعات الأخرى وخاصة الذرة و الشنتي. كل هذا

\* - توجد نسخة من هذه التراخيص عند السيد محمد الديني، 85 سنة، قبيلة بني بونصار.

\*\* - معاينة شخصية للمنطقة.



أدى إلى تراجع الطلب على هذه المادة، خاصة و أن منطقة صنهاجة سراير المتواجدة بالريف الأوسط الأعلى اتجهت كلها إلى هذه الزراعة، مما أدى إلى ضعف الطلب على هذه الصناعة وبالتالي تخلى عنها أصحابها.

و ينضاف إلى ما سبق، النقص في الأخشاب وخاصة اليابسة منها نتيجة بيعها للخواص واستنزافها من طرف بعض الشركات<sup>(8)</sup>، مما أدى بأصحاب هذه الصناعة للتخلي عنها، ولم يبق حاليا في القبيلة إلا آثارها التي ماتت بموت أصحابها وعدم اهتمام الجيل الحالي بها.

## خاتمة

بالرغم من قساوة الظروف الطبيعية و المناخية بالمنطقة، إلا أن الساكنة، قديما، تكيفت مع الواقع و استطاعت أن تستغل الموارد الطبيعية المنتشرة حولها و تجعل منها مورد رزق لها، قبل أن تجتاح زراعة الكيف منطقة صنهاجة سراير و تأتي على الأخضر و اليابس، لتندثر جل الزراعات و الصناعات التي كانت منتشرة بالمنطقة.

## المراجع

- 1 - أوجست موليراس، المغرب المجهول، الجزء 1، اكتشاف الريف. ترجمة عز الدين الخطابي. منشورات تيفراز ناريف. دار النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 2007. ص 135.
- 2 - العربي الصغير، 74 سنة، قبيلة بني بونصار، كان يمارس مهنة صناعة القطران إلى حدود التسعينيات من القرن 20.
- 3 - محمد الديني، 85 سنة، قبيلة بني بونصار، امتهن صناعة القطران التي أخذها عن والده حتى نهاية التسعينيات من القرن 20.
- 4 - أوجست موليراس، م. س، ص 61.
- 5 - محمد الديني، م. س.
- 6 - العربي الصغير، م. س.
- 7 - أنظر موليراس، م. س، ص 62.
- 8 - محمد الديني، م. س.